صفحة تصدر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية
iraqipa@hotmail.com

المشهد النفسي

٢-٣

العنف.. والشخصية العراقية

أ.د.قاسم حسين صالح

انظروا إلى تاريخكم الحديث، تجدون بين حوادثه الآتي :

❖ قتل الملك (فيصل الثاني) صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨، وقطعت أيادي الوصي وآخرين وطاف بها الناس في الشوارع.

❖ وقتل في العام ١٩٥٩، وسحل بالحبال، وعلق على المشانق، أشخاص في الموصل وكركوك.

❖ وقتل (عبد الكريم قاسم) في رمضان ١٩٦٣، وشوي في الشهر نفسه بالنار سكرتير الحزب الشيوعي العراقي وعدد من أعضاء الحزب وهم أحياء، وآخرون محسوبون على نظام قاسم جرى التمثيل بهم .

❖ وعقب هزيمة الجيش العراقي في الكويت ١٩٩١، وصل العنف بالعراقيين أنهم وضعوا إطارات السيارات في رقاب عناصر من البعثيين وأحرقوهم وهم أحياء.

❖ وبعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٨ أبيد اكثر من مائة وثمانين ألف كردي في عمليات الأنفال، وأحرقت آلاف القرى الكردية، فضلاً عن مجزرة حلبجة المعروفة .

❖ وفي العام ٢٠٠٣ اكتشف العشرات من المقابر الجماعية تضم رفات آلاف العراقيين، بينهم نساء وأطفال دفنوا وهم أحياء.

وتبين أن السلطة في النظام السابق استعملت وسائل العنف في التعذيب حتى مع من كان موضع الشبهة، مثل وضع الشخص وهو حي في الأحماض التي تذيب اللحم والعظم، والكي والحرق وتقطيع الأعضاء. ويخطئ من يرى أن هذا التفنن في العنف كان من مبتكرات النظام السابق، بل هو في الأصل (إرث سيكولوجي) من الأنظمة السابقة التي حكمت العراق، منذ أن صارت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية لألف عام. ففي هذا الإرث مشاهد من العنف قد تكون أكثر تحقيراً، إليكم واحدا منها:

في العام ٢٩١هـ جاء جنود الخليفة بالقرمطي (الحسين بن زكرويه) ومعه أكثر من ثلاثمائة من اتباعه، وقد وضعوا في فمه خشبه مخروطية وشدت إلى قفاه كهيئة اللجام. وأمر الخليفة (المكتفي) ببناء دكة في المصلى العتيق، وتجمهر الناس، وجيء بالأسرى يتقدمهم (القرمطي)، فصعدوا بهم إلى الدكة، حيث قطعت أيدي وأرجل أربعة وثلاثين من الأسرى وضربت أعناقهم واحداً بعد واحد. ثم قدم كبيرهم فضرب مائتي سوط، وقطعت يداه ورجلاه وكوي ثم أحرق ورفع رأسه على خشبة، وصلب بدن (لقرمطي) في طرف الجسر الأعلى الواقع في بغداد طبعاً.

وكان العراقي أكثر بني البشر —في زمانه— تعرضا للقسوة والذل والإهانة. ففي زمن الخلافة العباسية فقط، ضرب الحصار على بغداد أكثر من عشر مرات، أضطر الناس فيها إلى أكل القطط. وفي زمن الخلافة العثمانية (حوالي ٥٠٠ عام) كانت حتى العشائر في الريف تتصارع من أجل السيطرة. وكانت بغداد تنهب وتدمر وتهان لألف عام من الظلم والطغيان وإذلال أهلها من قبل الغزاة. والحقيقة —التي تعيد نفسها اليوم —أنه حيثما حكمت بغداد أو احتلتها سلطة أجنبية، ساد العنف كل أرجاء العراق.

الكاريكاتير فن الحكمة

هل كان مؤيد نعمة معالِجاً نفسياً؟

فارس كمال نظمي

ثمة حكمة سيكولوجية يتبناها محترفو العلاج النفسي، تقول: ((الحقيقة تشفي النفوس، فإذا ما أردت من الناس أن يتطهروا —ولو جزئياً —من همومهم وصراعاتهم، فاجعلهم "يستبصرون" بحقائق ذواتهم والعالم)). وقد تبنى (مؤيد نعمة) هذه الحكمة إلى أقصاها في ميدان فنه العاقل/ الساخر من عصاب العنف وبارانويا الاستبداد، والمتضامن بمرح معتم مع النبل البشري المحكوم بالمطاردة والتضييق والخنق!

(مؤيد نعمة) لم يرسم إلا لوحة كاريكاتيرية واحدة، قدمها بصيغ متنوعة جداً، ومبتكرة جداً، عبر عقود عسيرة من التجربة الشخصية والفلسفية والفنية والسياسية، لأنه ببساطة لم يقدر أن يخونها ويرسم غيرها. ولنقرأ ما بين سطور هذه اللوحة/الرسالة، وهي تخاطب من يتمعن فيها: ((يا صديقي المتلقي..انظر معي إلى العالم، إنه مكان رديء جداً ومتناقض جداً. فالقبح يعشش وسط احتمالات الجمال، والكذب يغطي مساحات الكلام، والظلم ينام قرير العين يحلم بمكاسب جديدة، والسادية تمارس ساديتها بضمير مرتاح، حتى البيئة مكتظة بالدم والبارود والجيف والآثام! ومع ذلك، حدق معي بعمق، فسترى أنه عالم قابل للتغيير، غير عصي أو ممتنع عن الإصلاح، يحتاج إلى خطوتك الأولى، إلى انتفاضتك الأولى!)).

هذه اللوحة الوحيدة والدائمة التي أدمن رسمها (مؤيد نعمة)، أصبحت لها وظيفة اجتماعية يومية في نفوس آلاف المنتظرين لها، إذ أمست تحقق شفاءاً نفسياً خاطفاً لمن يتأملها (ومهما تكررت مرات تأمله لها)، عبر أربعة ميكانزمات لاشعورية تمارس تأثيراً علاجياً آنياً مدهشاً لأعراض اليأس والكرب لديه، ولعلها امتدت في أعماقنا لتمنحنا صلابة تكيفية بعيدة المدى:

(١) التوحد

يهتف العقل الباطن المتأزم بأعلى صمته: ((هذه اللوحة تقول ما أريد قوله أنا. هي عقلي الناطق ووجداني الساكت. إنها تتوحد بي! إذن، لستُ مخصياً إلى هذا الحد. لستُ غائباً أو مغيباً إلى هذا الحد. أنا موجود!)).

(٢) تقاسم الإحساس بالذنب

يهمس العقل الباطن (الآثم) لنفسه: ((حسناً، هذه اللوحة تثبت بأنني لست الوحيد الذي يعرف الخطايا ولا يكافحها. هناك إذن من أتقاسم معه إحساسي بالذنب تجاه سلبيتي ولا فاعليتي. هذا يجعل معاناتي أقل!)).

(٣) التكوين العكسي

يعبس العقل الباطن أول الأمر أمام اللوحة، وتغرورق عيناه بالدموع، لكنه يهمس لصاحبه (العقل الظاهر): ((إضحك، أو ابتسم على الأقل، واترك البكاء لي. أنا مسؤول عن تجرع سموم حزنك وخيباتك كلها، أما أنت فمسؤول عن التخفيف عني قليلاً، بأن تبدو متماسكاً ومرحاً..وضاحكاً!)).

(٤) التطهر بتقزيم الشر

يندفع العقل الباطن المُستَلب لتفريغ أشد انفعالاته الحبيسة أسى وعمقاً وجدية، عبر مشاهدة أسبابها مجسمة ومشخصنة في لوحة أمامه، تعري نفسها، وتسخر من آثامها وحمقها، فيهلل مستبشراً: ((أيها الشر، ها أنت الآن خلف قضباني، مُنتَهكٌ، مُنتَقصٌ منك. نعم، أعترفُ بسلطانك على حياتي، لكنني الآن أفضحك، أقزّمك، أثأر منك، وأسترد حقي ولو بخطوط تسطر حقيقتك على الورق!)).

لقد خطا (مؤيد نعمة) بوعيه الجمالي التنويري أبعدَ من وعي اللحظة التاريخية المظلمة التي طوقته، إذ رغم غيابه الفيزيقي المبكر عن هواء العراق، إلا أنه أفلح بالالتحاق الأبدي بذاكرة الثقافة العراقية، بوصفه مروجاً أميناً لأيديولوجية (ليس أمامك أيها الإنسان المعذب إلا أن ترسم الشر والحمق، ثم تضحك منهما حتى تتسيدهما).

إن رحيله العبثي جدد فينا سؤالاً فلسفياً مريراً، كثيراً ما شاكسنا في أغلب مراحل حياتنا الشخصية والفكرية بمواجهة لغز الوجود: كيف يمكن لمؤيد نعمة (أو لأي مبدع للجمال والحقيقة) أن يخضع لمبدأ الانطفاء البيولوجي، كأي كائن عضوي آخر في هذا الكون؟ كما جدد لدينا مفارقة أن العظماء لا يُقرّ بعظمتهم إلا بعد رحيلهم، ذلك إن الادراك البشري لا يزال (يحتاج) الى الموت بوصفه لحظة قدسية صادمة، تجعله يستدرك غفلته عن التمحيص بحقائق حياتية، كانت ساطعة وبمتناول تفكيره قبل تلك اللحظة.

سنفتقد كثيراً جلسات علاجك الكاريكاتيري اليومي معنا يا (فنان الشعب)، لكننا تعلمنا منك الدرس: ((إذا أردتَ أن لا تنحني أيها الإنسان المقهور، فلا تهدر طاقتك بحركات فائضة، بل كثف بؤس العالم في لوحة صغيرة أو في فكرة مركزة، وستجد أنك الأقوى لأنك الأعرف!)).

سيكولوجية الإثم لدى الوالدين

كفاح عبد المجيد

في الوقت الذي يفترض بالوالدين أن يوزعا محبتهما بالتساوي بين أبنائهما، نجد تفاوتاً لا شعورياً لدى البعض منهم في مقدار هذه المحبة تجاه طفل دون الآخر، وهذا ما يثير قلقهما، ويجعلهما يشعران بعقدة الذنب والإثم، ويدفعهما إلى سلوكيات خاطئة. تشير التحليلات النفسية لهذا النوع من الشعور بالإثم لدى الآباء والأمهات، بأنه يمكن أن يكون بواحدة من حالتين: إما حالة طبيعية، وإما حالة مرضية .

الحالة الطبيعية

تنتج حالة الشعور بالإثم الطبيعية عن أسباب عدة، من بينها التفاوت في مقدرة الأبناء جسدياً وفكرياً، وهذه حقيقة واقعة على الآباء أن يقروها تجاه أبنائهم؛ أو قد تكون صورة الطفل جاءت مخالفة لما هو مرسوم في مخيلة الوالدين، فمثلاً، قد يكون الوليد أنثى بينما كان الوالدان يفضلانه ذكراً، أو طفلاً ضعيفاً كثير البكاء، أو غير مجتهد في مدرسته، أو غيرها من الأسباب التي تجعل الأطفال في الأسرة الواحدة يتفاوتون في قدراتهم، وبالتالي ليس في وسع الوالدين أن تكون مشاعرهما متساوية نحو أي اثنين منهما. فمن ناحية قد يستمتعان بمزايا حسنة عند طفل معين، ومن ناحية أخرى قد يستاءان من طفل آخر، وهذا هو مصدر الشعور بالذنب لديهما. ومهما بلغ الوالدان من ذكاء وتفهم لحقيقة وجود فروق فردية بين أطفالهما، لكن تبقى ظاهرة الشعور بالإثم فاعلة لديهما عبر كبتها في اللاشعور، خاصة بعد أن يبدر منهما ردود أفعال قوية تجاه إساءات أحد الأبناء. وفي الواقع، إن عليهما أن لا يلوما نفسيهما كثيراً، فمشاعر الفخر والاعتزاز تجاه البعض والاستياء والغضب تجاه البعض الآخر، هي تصرفات طبيعية بل حتمية، وضرورة من ضرورات التربية السليمة إذا ما جاءت متوازنة بعيدة عن العنف والتحامل والتحيز الشديد والمستمر لصالح أحد الأطفال على حساب أخوته

الحالة المرضية

هنا تبرز عدة أسباب لتحول الشعور بالإثم إلى حالة مرضية:

❖ إهمال الأم لأطفالها نتيجة ارتباطها بعمل خارج البيت.

❖ الطفل ذو العاهة البدنية أو العقلية.

❖ التبني، إذ يحاول الوالدان أن يقدما لطفلهما ما هو فوق طاقتهما لكي يبررا أخذه من والديه الحقيقيين.

❖الوالدان اللذان درسا علم النفس أو الاجتماع في الجامعة، قد يرغبان أن يطبقا ما تعلماه على أطفالهما بطريقة قسرية وميكانيكية، الأمر الذي قد يتحول لديهما إلى شعور لا واع بالإثم نحوهم.

❖ الوالدان اللذان اقترنت نشأتهما بالقسوة أو بعدم الرضا من والديهما عنهما، ولا يريدان أن يكررا التجربة ذاتها مع أطفالهما.

والسؤال الآن: كيف سيكون سلوك مثل هؤلاء الآباء الشاعرين بالإثم تجاه أبنائهم ؟

تميل الأم (أو الأب) إلى أن لا تطلب من أطفالها إلا اقل ما يمكن، بينما تفرض على نفسها اكثر ما تستطيع. وتحاول أن تكون رقيقة المزاج وصبورة، على الرغم من إنها في أعماقها تكاد تصل إلى مرحلة نفاد الصبر عندما يبالغ الطفل في سوء تصرفاته، مقارنة بحسن سلوك أخوته. كما إن سيكولوجية الطفل في هذه الحالة تصبح شبيهة بسيكولوجية الإثم لدى أمه، إذ إنه عندما يسيء التصرف فانه يتوقع أن يُعاقب، ولكن عندما تغمض الأم عينيها عن عقابه بسبب مشاعر الإثم لديها، سيشعر الطفل ذاته بالإثم، ويود لو أن أحداً يوقفه عند حد معين. وعندها يزداد سلوكه سوءاً، وكأنه يتساءل في نفسه: (إلى أي مدى من السوء ينبغي أن امضي قبل أن يتصدى لي أحد لمنعي من الاستمرار؟). وهكذا، ستصل تصرفاته إلى حد الاشمئزاز، فينفد صبر أمه وتعاقبه بشدة ليعود السلام إلى المنزل. عند هذه النقطة تبدأ الحالة المرضية لدى الأم، أي تبلور وبروز عقدة الإثم عندها، إذ تشعر بالخجل والذنب البالغ لفقدانها سيطرتها على نفسها وإنزالها العقاب بطفلها هذا تحديداً (دونا) عن بقية أخوته. فتحاول أن تعوض الطفل عما أنزلته به من عقاب، أو تتركه هو ليتولى عقابها أو يعاملها بخشونة!! أو تتوقف عن العقاب في منتصف الطريق، أو تتظاهر بأنها لا تراه عندما يعود إلى الإساءة من جديد. ولذلك نرى أن كثيراً من الأمهات يرددن عبارات الشكوى من طفلهن، في الوقت الذي يؤكدن تسامحهن وخضوعهن له وعطفهن عليه رغم إساءاته، الأمر الذي يجعله استفزازياً وعدوانياً على الدوام.

ينبغي على الوالدين في مثل هذه الحالات أن يعرفا ويقتنعا إن تشددهما وحزمهما تجاه إساءات بعض أبنائهما، لا يعني انهما يفضلان بقية أخوتهم عليهم، أو بأنهما غير محبين لهم، فهناك أوقات كثيرة يستطيعان بها إثبات محبتهما وتساهلهما معهم. كما عليهما أن يدركا بأن شعورهما بأنهما لا يوزعان حبهما بالتساوي بين أطفالهما هو أمر من أمرين: فإما إنه (وهم) يعتريهما ناتج عن اضطرارهما لمعاقبة طفل دون آخر، وإما أنه أمر (حقيقي) ناتج من عوامل طبيعية ترتبط بشخصية كل طفل وملابسات علاقته الوجدانية بوالديه. وفي كلا الحالتين، يغدو مفهوماً أن لا قصدية من جانبهما للانحياز أو محاباة أحد أطفالهما على حساب الآخر، وعندها سيجدان نفسيهما أكثر اعتدالاً وإنصافاً وتفهماً للفروق بين أطفالهما. وتلك هي الخطوة الأولى والأساسية نحو تفتيت عقدة الإثم لديهما، والمباشرة بإطلاق طاقة الحب الكامنة في أعماقهما، لا سيما نحو الطفل الذي يعتقدان بمظلوميته بسببهما.

(الطلاق) في المنظور النفسي

مازن يوسف

(الزواج) علاقة مصيرية شاملة بين الرجل والمرأة، أضفت عليها المجتمعات والشرائع والأديان قدسية واحتراماً كبيرين، وأخضعتها لاعتبارات متعددة: اجتماعية ودينية واقتصادية وقانونية، لغرض تنظيمها ضمن إطار الأسرة التي تعدّ التنظيم الاجتماعي الأول في المجتمع.

لقد عرف الإنسان ومارس العديد من العلاقات العاطفية والجنسية خارج نطاق مؤسسة الأسرة، إلا أن العلاقة الزوجية —بتعدد مستوياتها —أثبتت نجاحها وديمومتها عبر آلاف السنين أكثر من كل الأشكال الأخرى. ولكن بالرغم من الاستقرار التاريخي لهذا النمط السوسيولوجي من العلاقة بين الجنسين، إلا إنها كثيراً ما تتعرض إلى التأزم والاختلال وعدم التوافق بين طرفيها، إلى حد انفصام عرى العلاقة بالطلاق.

وتشير مجمل الأبحاث التي رصدت ظاهرة الطلاق، إلى وجود شبكة من العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية والدينية، تنفرد تارة وتجتمع حيناً، تقف وراء تفكك العلاقات الزوجية وانهيارها. وسنركز في هذه السطور على أسباب الطلاق من زاوية علم النفس، وتحديداً ضمن (٣) محاور تفسيرية هي: (الشخصية) و(السلوك الجنسي) و(الصحة النفسية).

الشخصية

الشخصية تكوين اختزالي يتضمن الأفكار والدوافع والانفعالات والميول والاتجاهات والقدرات، التي تعطي للناس ذاتيتهم المتميزة. وهي نتاج لتفاعل الأطراف الثلاثة لمثلث العقل والوجدان والجسد، مما يعني أن طبيعة الشخصية وما يترتب عليها من أنماط سلوكية متنوعة، له دور أساسي في مدى تحقيق الانسجام أو التنافر بين الشريكين. فقد يحدث الطلاق بسبب فشل الزوجين في إشباع حاجات وتوقعات كل منهما من الآخر، أو عدم قدرتهما على تقبل الاختلاف في عادات وآراء واهتمامات وأهداف وقيم بعضهما البعض، فضلاً عن الغيرة المَرَضية وحب التملك اللتين يمكن أن تمنعا كل شريك من إعطاء الآخر حرية الاستقلال. وقد يحدث الانفصال بسبب التوزيع غير العادل للمسؤوليات بين الزوجين.

أما الاضطرابات والاعتلالات التي قد تصيب الشخصية(قبل أو بعد الزواج)، فيمكن أن تنسحب أيضاً على صحة العلاقة، فيدفعها للاختلال ثم الانفصال. إن وعي أحد الشريكين(أو كليهما) بأمر هذه الاعتلالات (البسيطة منها تحديداً)، سيمكنهما من التصدي لاحتمالات النيل من درجة التوافق النفسي القائم بينهما، من خلال الاستعانة بخبرة الاستشاري النفساني المختص.

السلوك الجنسي

يمكن اختزال عوامل السلوك الجنسي المؤثرة سلباً في العلاقة بين الجنسين إلى (٣) عوامل أساسية:

١- نقص المعرفة الجنسية: يدفع هذا النقص لدى أحد الشريكين أو كليهما إلى تكريس أنماط غير سليمة من السلوك الجنسي، عبر السعي الأناني لإرضاء الدافع الجنسي، دون إيلاء الاهتمام المناسب لتطمين حاجات الشريك، ودون مراعاة الصعوبات والمشكلات الصحية التي قد يعاني منها. إن مثل هذه الممارسات تعدّ معوقاً للحصول على المتعة، وسبباً لظهور مشاعر النفور من الجنس، الأمر الذي قد يمهد لسوء التوافق بين طرفي العلاقة، وخاصة إذا استمرت هذه الحالة لمدة طويلة.

٢- الاضطرابات الجنسية عند الزوجين: تؤدي دوراً مهماً في القضاء على العلاقة الزوجية، إذ قد يصاب أحد الطرفين بإحباط شديد، نتيجة الإعاقة المستمرة لحالة الوصول إلى النشوة الجنسية المطلوبة، كما في حالات القذف السريع لدى الرجل، أو القذف دون تحقيق الانتصاب الكامل، أو الانتصاب لمدة قصيرة إذ لا يتيح ذلك للمرأة الاشتراك في العملية، أو حالات عدم الانتصاب(العنة).

كما إن آلام الجماع التي تشعر بها المرأة بسبب ضيق فتحة المهبل أو بسبب بعض الالتهابات المزمنة في الرحم، أو الروائح الكريهة التي تنبعث من المرأة، أو حالات البرودة الجنسية، كلها تؤدي إلى نفور الزوج، وإحداث حالة من الإحباط والحرمان التي قد تتحول إلى مشاعر عدوانية بين الشريكين تؤسس لحالة من الصد والنفور تظل قائمة بينهما لحين انتهاء علاقة الزواج.

٣- الانحرافات الجنسية: تؤدي، بصرف النظر عن الطرف الذي يمارسها، إلى إرباك العلاقة الزوجية، والى حالة من القلق والاشمئزاز تؤدي إلى هدم العلاقة الزوجية. ومن أهم أشكال هذه الانحرافات: الخيانة الزوجية، والجنسية المثلية، والسادية، والمازوخية، وجنون الشبق.

الصحة النفسية

الصحة النفسية السوية، من شأنها أن تهيء لكلا الطرفين بيئة تتسم بالتوافق والحنان والفهم وإنشاء علاقات دافئة مع الآخرين، للحصول على الرضى وتحقيق الذات. وعلى النقيض من ذلك، حالة (اللاسواء) أو الاعتلال الذي يصيب الصحة النفسية، ليفرز أنماطاً مضطربة من السلوك تدفع العلاقة إلى طريق مسدود، من بينها: القلق والاكتئاب والهستيريا والمخاوف المرضية والأفكار التسلطية والوساوس المرضية والأوهام الاضطهادية. كما إن من نتائج الإدمان على الكحول والمخدرات ولعب القمار ما يدفع بعلاقة الزواج نحو الهاوية. وتسهم الاضطرابات النفسجسمية (السايكوسوماتية)، في إشاعة جو من السوداوية والقنوط، ليحيل مناخ العلاقة الزوجية إلى ساحة من فقدان الرجاء والانهزامية، فيستنزف حيويتها ويلحق بها ضرراً بالغاً.

ولا يغيب عن تحليلنا هذا جملة أخرى من الأسباب النفسية (غير الحتمية) في تأثيراتها السلبية على نجاح العلاقة الزوجية؛ من بينها حالة (العقم) لدى الزوج أو الزوجة وما قد تشيعه من توترات ومشاعر ذنب بينهما، وحالة (الزواج المبكر) بما تتضمنه من احتمال افتقار الزوجين أو أحدهما إلى النضج العقلي والعاطفي والاجتماعي المطلوب، وحالة (الزواج المتأخر) التي قد يفقد خلالها الشخص المرونة اللازمة للتوافق النفسي مع شريكه، فضلاً عن أسباب أخرى تتعلق بالحيوية والاستعدادات والقدرات التي تبدأ بالانحدار مع تقدم العمر.

الزواج هو اتحاد طبيعي واجتماعي بين عالمين بشريين، لا يقوم على القوانين والأعراف وحدها، وإنما يقوم بالأساس على العواطف المتأصلة؛ فإذا تلاشت هذه العواطف، فلن تستطيع القوانين حماية الزواج من الاندثار. وبذلك يكون الطلاق، انهاءاً لحالة عدم التكيف والاتساق بين السمات النفسية لشخصية كلا الشريكين.